وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِـمَا لَيْسَ مِثْلَهُ، كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]؟ فَقِيلَ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١][1]؟

القولَ إذا كان لا يَقْتضِي أنْ تكونَ هذه القُلوبُ مماسَّةً للأصَابع، فيجب أن يَبْقَى الحديثُ على ظاهِرِه، ويقال: إن البَيْنِيَّةَ الَّتِي تكونُ القلوبُ فيها بيْنَ أصابعِ الرَّحْمٰنِ هي بَيْنِيَّة حقِيقيَّة، لا يلزمُ منها المماسَّة، بل أقولُ أيضًا: ولا يَلْزَمُ أن تكونَ هذه البينيَّة مُشابَهَةً لبينيَّة المَخْلُوق، بل إنَّها ليست مُشابَهةً بالتَّأكيد.

[١] قولُه: «**وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِـمَا لَيْسَ مِثْلَهُ**». مما يُشبِهُ هذا القولَ -يعني القولَ بأنَّ ظاهِرَ النَّصِ باطِلٌ فيجب أن يُحَرَّفَ- «**كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾؟**»، والخِطاب في الآيَةَ للشَّيطانِ، والمُرادُ بـ(ما) هُنَا (مَنْ) في قولِهِ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (آدم).

﴿تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: لآدَمَ الَّذي خَلَقْتُه بيدَيَّ.

وإذا قالَ قائِلٌ: لماذا قالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ولم يَقُلْ: (لمن خلقت) مع أنَّ آدم عاقِلٌ ومعروفٌ أنَّ (مَن) للعاقِلِ و(ما) لغيرِ العاقِلِ؟

فالجوَاب: ربَّما تأتي (مَن) لغير العاقِلِ ومَا للعاقلِ ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وكذَلِك قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥].

لكـن هذا خُـروجٌ عن الأصلِ، ولا يمْكِـنُ أن تخـرجَ عن الأصلِ إلَّا لفائـدةٍ، هذا معروفٌ في القـرآنِ، تكـون (مَن) للعاقِـل إذا قَصَدَ مجَـرَّدَ الشَّخصِ، لا إذا قُصِدَتِ

.....

المعَانِي الَّتِي اتَّصفَ بها الشَّخصُ، وإذا قُصِدَتِ المعاني الَّتِي اتَّصف بِها الشَّخصُ نقول (ما)، كَما فِي قولِهِ تَعالَى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، مَا طابَ لكُم بالصِّفَات؛ لِأنَّ المرأةَ تَطِيب بصفاتِها، «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا»[1] إلى آخرِه، لا لمجرَّد أنَّها امرأةٌ، ولكن بِصَفاتِها.

قولُه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ المقصودُ هُنا تَغْليبُ المَعْنى على الشخصِيَّةِ؛ لِأنَّ كونَ اللهِ خَلَقَهُ بيدِهِ أمْر لا يشاركُهُ فيه أحَد، لكن مجرَّد أنَّه مخلوق فكلُّ الخلقِ يشارِكُه، نعم آدَمُ مخلوقٌ، والكلبُ مخْلوقٌ، والحمار مخلوقٌ إلى آخرِه، لكن المَعْنى الَّذي تَمَيَّزَ به آدَم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أنَّ اللهَ خلقَهُ بيدِه، فكونُه خلقَه بيدِهِ معْنَى زائدٌ على مُجَرَّدِ الشَّخْصِيَّةِ العاقِلَةِ، ولهذا قَالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

فكانَ جوابُ إبليس: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١]، لم يقُلْ (لما خلقت طينا)، إنكارًا للفضائلِ والمعانِي الَّتِي تَمَيَّزَ بها آدمُ، كأنَّه خُلِقَ خلقًا عاديًّا كغيرِهِ، مرَاعِيًا فيها الشخصيةَ دون الصِّفَات والمعانِي.

فإذَنْ (مَا) تأتي لغيرِ العاقِلِ إلَّا إذا تَضَمَّنَتْ بعضَ المعانِي، مثل الصِّفَات، سواء كانتَ حميدةً أو غيرَ حميدةٍ.

فهذا لَيْسَ مثلَ هذَا لو قَالَ قائِلٌ: إنَّ آدمَ لم يُخلَقْ بيدِ اللهِ؛ لِأنَّ اللهَ قَالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فهو كقولِه: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾، ومِن المعْلُوم أنَّ هذه الأنعامَ الَّتي

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٤٨٠٢)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين رقم (١٤٦٦).

فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا؛ لِأَنَّهُ هُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الأَيْدِي[١]؛ فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠][٢]، .....

هي الإبلُ لم يخْلُقْها اللهُ بيدِه، ومَع ذَلِك قَالَ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، يقصد أنهم يقُولُونَ: إنَّ هذَا مثْلُ ذَاكَ لأَجْل ذَلِك يُنْكِرُونَ اليدَ الحقيقيَّةَ.

ومِنَ المعْلومِ أنَّ الله خلقَ الإبلَ بقُدرتِهِ، فهوَ يقُولُ: أنَا أجعَلُ مما خَلَقْتُ بيَدَيَّ بقدرَتِي، وأجعلُها مثلَ قولِه ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ لِأَنَّنا نعْلَمُ أنَّ اللهَ مَا خلق هذِه البهائمَ بيدِهِ لكنَّها مِن عمَلِ يدِهِ، فهُم يجْعَلُون اللَّفْظ ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ مثل قولِه: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ لأجل أنْ يقولُوا أنَّ هذا لا يستَلْزِمُ إثباتَ اليدِ الحقيقِيَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما المُرادُ بها القُدرةُ والقُوَّةُ.

[١] قولُه: «فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا»، فهذا أي: الأخيرُ لَيْسَ مثلَ هذا الأوَّل: «لِأَنَّهُ هُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الأَيْدِي». الفعلُ إلى الأيْدِي ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ لم يقُل (مِما عمِلْنا) لكِن قَال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فأضافَ الخَلْقَ إلَيْه، وجعل اليدَينِ مخلُوقًا بِهم وهُو الخَالِق، أمَّا الأنعامُ فجعلَها مَفْعولًا وهُو الفاعِلُ، لم يجعل واسِطَةً بين فِعْلِهِ ومفعولِهِ.

ففرْقٌ ما بينَ قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾.

[٢] قولُه: «فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]» في القُرآن ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، أيدِيكُم، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

وَهُنَا أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿خَلَقْتُ﴾ [ص:٧٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿بِيَدَيَّ﴾[١]، وَأيضًا: فَإِنَّهُ هُنَا ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وَهُنَاكَ أَضَافَ الْأَيْدِيَ إِلَى صِيغَةِ الجَمْعِ فَصَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤][٢].

---

[١] قوله: «وَهُنَ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿خَلَقْتُ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿بِيَدَيَّ﴾». لو قَالَ: «ما منعك أن تَسْجُدَ لما خَلَقْتَ أيدِينا» لكانت مثلَ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾، أمَّا هنا فأضَاف الخلْقَ إلَيْه ﴿خَلَقْتُ﴾، ثم جعلَ اليدَينِ مخْلُوقًا بهما.

ونضربُ مِثالًا ليَتَّضِحَ الأمرُ: قطَعْتُ اللَّحم بالسِّكين، السكِّينُ غيرُ نفْسي، ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فهِمنا أنَّ اليدَيْن غيرُ ذاتِ الله، فلَيْست هي ذاتَ الله، بل هي معْنًى آخرُ زائدٌ، لكِنْ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما عمِلْنا كما في قولِه: (بما كَسَبَتْ أيدِيهِمْ)، إذا كانَتْ هذه الآيَةُ مِن القُرآن فالمَعْنى: بما كَسَبُوا، وإنَّما أضيفَ الفِعْلُ إلى الأيدِي لأنَّها آلةُ الفِعْلِ غالبًا.

[٢] قوله: «وَأيضًا: فَإِنَّهُ هُنَا ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]،...».

هنا يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أضافَ الفِعْلُ إلى نفْسِهِ، فذكَرَ نفسَه فإنَّه هنَا ذكَر نفْسَه المقدَّسةَ بصيغَةِ المُفرد ﴿بِيَدَيَّ﴾، يَدَيَّ أصلُها (اليدَيْن) هذا الأصل فحُذفَتْ اللامُ ثم أضيفت اليدُ إلى ضميرِ المفرَدِ بيَدِي وبأيْدِينا، ﴿أَيْدِينَا﴾ مثْلُها ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، ﴿بِيَدَيَّ﴾ أضَافَ الياءَ المفْرَد، وهناك أضيفتْ إلى الجَمْع كذَلِك المضافُ في قولِهِ: ﴿بِيَدَيَّ﴾ مُثَنًّى، والمضافُ في قولِه: ﴿أَيْدِينَا﴾ جمْعٌ، فكيفَ يجْعَلُ هذا مثل هذَا؟

وَهَذَا فِي الجَمْعِ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وَبِيَدِهِ الخَيْرُ فِي المُفْرَدِ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ المُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الجَمْعِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَلَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ قَطُّ؛ لِأَنَّ صِيغَةَ الجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ؛ وَرُبَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي أَسْمَائِهِ، وَأَمَّا صِيغَةُ التَّثْنِيَةِ فَتَدُلُّ عَلَى الْعَدَدِ المَحْصُورِ؛ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ فَلَوْ قَالَ: ﴿مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ لَمَا كَانَ كَقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وَبِيَدِهِ الخَيْرُ، وَلَوْ قَالَ: خَلَقْتُ بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ لَكَانَ مُفَارِقًا لَهُ؛ فَكَيْفَ إِذَا قَالَ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ؟ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ هَذَا مَعَ دَلَالَاتِ الْأَحَادِيثِ الْمُسْتَفِيضَةِ بَلِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ قَوْلِهِ: «**الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا**»[1]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

توضيحُ الفَرْقِ: **أولًا**: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أضاف الفِعْلَ إلى الأيْدِي، و﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أضاف الفِعْل إلى نفسِهِ.

ثانيًا: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أضاف الأيْدِيَ إلى ضميرِ الجمْعِ، وأما ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أضافَه إلى مفردٍ.

ثالثًا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ المضافُ مثَنًّى، ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ المضافُ جمْعٌ، فكَيْف مع هَذه الفُروقِ الثَّلاثةِ نجْعَلُ هذِه مثلَ هذِه؟! لا يمكنُ هذا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠).

وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَى مَعْنَاهَا -وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الجَمِيعِ-؛ فَإِنَّ الله لَـمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ: كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَـمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا، وَكَذَلِكَ لَـمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ حَقِيقَةً، عَالِمٌ حَقِيقَةً قَادِرٌ حَقِيقَةً؛ لَـمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ مِثْلُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

فَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا فِي قَولِهِ تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩]، وَقَوْله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَـمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ اسْتِوَاءً كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوق، وَلَا حُبًّا كَحُبِّهِ وَلَا رِضًا كَرِضَاهُ[١].

---

[١] هل الصِّفَات الأخيرَةُ الثَّلاث الَّتي ذكرها المُؤلِّف يوافق عليها الأشَاعِرَة؟

الجوَاب: لا، فهم لا يُوافِقُونَ على قولِه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾، ولا قولِه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، ولا قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، لا يُوافِقُونَ.

نقولُ للأشاعِرَةِ الَّذين يُثْبِتُونَ العِلمَ والقُدرةَ ومَا سَبَق: أنتُمْ تعتَقِدُونَ أنَّ هذا العِلمَ حقيقةٌ وأن النَّصَّ على ظاهِرِهِ، ويعتقدونَ أيضًا: أنَّه ليس مِثْلَ عِلم المَخْلُوقِ ولا قُدرَتِه، نقولُ: نحن أيضًا نقولُ بالمَحبَّة والرِّضَا أنَّه حَقٌّ على ظاهِره، ولا يُشبِهُ محبَّةَ المَخْلُوقِين ورضاهُم واستواءَهُم، فالأمرُ واضحٌ، فصار ظاهِرُ النُّصوصِ كلِّهَا مُراد، ولكن ظاهِرُهَا المَعْنى اللائق باللهِ ليس ظاهِرُها التشبيهُ الَّذي هو الكفْرُ.

فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَزِمَهُ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا[١].

وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ، وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا[٢].

إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا[٣].

---

[١] إذا كانَ يظُنُّ أن ظاهِرَ النُّصوصِ إثباتُ التَّمثيلِ لا يلْزَمُهُ أنَّ جميعَ الصِّفَاتِ ليس مُرادًا ظاهِرُها؛ لأنَّه يعتَقِدُ أنَّ الظَّاهِرَ هو التَّمثيلُ، والتَّمثيلُ بلا شكٍّ غيرُ مُرادٍ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفاتِهِ.

[٢] يَعْني: إذا كانَ يعتَقِدُ المستَمِعُ أن ظاهِرَ النُّصوصِ هو اللائقُ باللهِ، فلَا يجوزُ أن ينْفِيَ هذا، ولهذا قال: لم يكن له نَفْي هذا الظَّاهِرِ؛ يعني: لا يجوزُ أن يقولَ ظاهرًا غيرَ مرادٍ، ولا نفْيُ أن يكون مُرادًا، بل الواجب عليه إثباتُ هذا الظَّاهِرِ، وإثباتُ أن هذا هو مُرادُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٣] بهذا تقَرَّرتْ هذه القاعِدَةُ العظيمَةُ، وهي أن يُقال: هَلْ ظاهِرُ النُّصوصِ في صِفَاتِ الله تعالى مرادٌ أم غيرُ مرادٍ؟

وخلاصةُ الجوَابِ أن نقولَ: إن أُريدَ بالظَّاهِرِ -أو إن كانَ القائل يفْهَمُ- أن ظاهرَها معْنى يلِيقُ باللهِ؛ فالظَّاهر مُرادٌ، وإن كان يفْهَمُ أن ظاهِرَها معْنَى لا يليقُ باللهِ؛ فالظَّاهِرُ ليس مُرَادًا.

مثالٌ على نصٍّ من نصوصِ الصِّفَاتِ: إذا قالَ لنا مثلًا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ظاهره غيرُ مُرادٍ؟

وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ[١]، وَأَجْسَامٌ وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ، وَمِنْهَا: مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ[٢]، .....

فنقول: إن أردتَ استَواءً يختَصُّ باللهِ ويليقُ به ولا يُشبِهُ استواءَ المَخْلُوقِين؛ فهو مُرادٌ، وإذا قال: لا، أنا أقولُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بأني أنْفِي أن يكونَ استواءً يماثل صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، فأقولُ: إن الآيَةَ ظاهِرُها غيرُ مُرادٍ لهذا السَّبب.

نقول: صحيح، إنه غيرُ مُرادٍ.

هم يُفَسِّرُونَ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعْنَى استَولى، فإذا قلنا: لماذا لا تُثْبِتُ استوى بمَعْنى عَلا على العرشِ؟ قال: لأنَّ هذا يُشْبِهُ صِفَاتِ المَخْلُوقِين، ولو أنَّني أثْبَتُّ الاستواءَ لكان معْنَى ذَلِك أن اللهَ يُشْبِهُ المَخْلُوقِينَ، فأنا أقول: هذا الظَّاهرُ غيرُ مرادٍ.

فنقولُ: الآيَة لم تدُلّ على أن الاستِواءَ استواءٌ يُشبِهُ استواءَ المَخْلُوقِ، فالَّذي نجْزِمُ به أنها تَدُلُّ على استواءٍ يليقُ به.

إذَنْ فكونُ هذا الرجلِ يعتَقِدُ أن قولَه: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يدُلُّ على أنه استواءٌ يُشْبِهُ استواءَ المَخْلُوقِين، فهذا باطِلٌ ليس بصحيحٍ، ويجب أن نُصَحِّحَ مفْهُومَهُ، وأن يَعْرِفَ أن المُرادَ بكل الصِّفَات ما يليقُ باللهِ.

[١] قولُه: «**وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ صِفَاتِنَا**»: ما قال صِفَاتُ الله، «**مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ، وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا**»: أعيان يعنِي: عينٌ قائمٌ، فالصِّفَاتُ إمَّا أعيانٌ وأجسامٌ أوْ معانٍ وأعراضٌ، مثل: اليدِ صِفَة لنا، ولكنها عَيْنٌ، والعِلمُ صِفَةٌ لنَا لكنَّه مَعْنى، فالمُراد بالعَينِ -ما يقابِلُ المعْنَى-.

[٢] معانٍ ضدُّ أعيانٍ، وأعراضٌ ضدُّ أجسامٍ.

وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ[١].

ثُمَّ إِنَّ مِن المَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَـمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ: لَـمْ يَقُلِ المُسْلِمُونَ إِنَّ ظَاهِرَ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ؛ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مِثْلُ مَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا؛ فَكَذَلِكَ لَـمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ لَـمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ مُرَادٍ، لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا، بَلْ صِفَةُ المَوْصُوفِ تُنَاسِبُهُ.

فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ المُقَدَّسَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ المَخْلُوقِينَ فَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، وَنِسْبَةُ صِفَةِ المَخْلُوق إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ صِفَةِ الخَالِقِ إِلَيْهِ[٢].

---

[١] قوله: «وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا: كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ»: أصحيحٌ هذا أم لا؟

تقْسِيمُ المؤلِّفِ صِفَاتِ الإنسانِ بالنِّسبَةِ إلى صِفَاتِ الله يُبَيِّنُ أن صفاتِنَا منها أعيانٌ، ومنها وأجسامٌ هي أبعاضٌ لنا، مثلُ اليدِ والوجهِ والعَينِ والرأسِ والرِّجْل إلى آخِرِهِ، وشيءٌ من صفَاتِنَا معانٍ وأعراضٌ، مثْلُ العِلم، فأنا مثلًا عِنْدِي عِلم وعنْدِي قُدرة، لكِنْ لَا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يُشاهِدُ أحَدٌ عِلْمِي وقُدْرَتِي شيئًا متَمِيِّزًا كما تَتَمَيَّزُ اليد.

إذَنْ صارت صفاتُنَا تنقسمُ إلى قسمَينِ: السَّمعِ والبصرِ معْنًى وليس عَينًا، فالعَينُ هذِه وسيلةٌ؛ يعني: إناءٌ، والبصرُ فيها وسيلَةٌ إلى الرُّؤيةِ، وليس البَصَرُ هو العَينُ، أمَّا العينُ فهِي الجِسْم.

[٢] المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقِيسُ الصِّفَاتِ الَّتي هي غيرُ معانٍ إلى الصِّفَاتِ الَّتي هِي معانٍ، فصفَاتُنا معانٍ وأجسامٌ، وصِفَاتُ الله تعالى معانٍ وشيء يشتَرِكُ في الاسمِ مع ما هُوَ أبعاضٌ لنا، ولا نَسْتطيع أن نقولَ: إنه بعْضٌ لله، لكن نقول: يشارِكُ في الاسمِ ما هو من أبْعَاضِنَا، مثل: اليدِ.

وَلَيْسَ الْمَنْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ، وَلَا الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ كَالْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبِّهْ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ[١].

---

[١] يقْصِدُونَ أنَّ صفَةَ الخَالِق تَليقُ به، وصفَةَ المَخْلُوق تليقُ به، وليس المنسوبُ كالمنْسُوبِ، ولا المنْسوبُ إلَيْهِ كالمنْسُوبِ إلَيْه، كما قالَ ﷺ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»(١)، فشَبَّه الرُّؤيةَ بالرُّؤيةِ، ولم يُشَبِّهِ المَرْئيَّ بالمَرْئيِّ.

فالمُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى صِفَات معانٍ متَّفَقًا علَيْهَا، وصفات معانٍ مختَلَفًا عليها، وصفاتٍ معنويَّةً وصفاتٍ عينيَّةً.

صفَاتُ معانٍ متَّفَقٌ عليها، مثل: العِلم والقُدْرَة والسمْع والبصَر، هذه كلُّنا متَّفِقُونَ على أن ظاهِرَ النُّصوصِ فيها مُرادٌ.

وصِفَاتٌ معنَوِيَّةٌ متنازَعٌ فيها، مثل: المَحَبَّةِ والاستواءِ والرِّضَا، فأهل السُّنَّةِ والجماعة يقُولُونَ: إن ظاهِرَهَا مُرادٌ، ولكن بالمَعْنى الَّذي يَلِيقُ باللهِ، ومن نازَعَهُم في ذَلِك يقولُ: ظاهِرُها غيرُ مرادٍ؛ لأنَّهم يعتَقِدُونَ أنَّ ظاهرَها التشبيهُ، فلذَلِك قالوا: غيرُ مرادٍ.

أما الصِّفَاتُ المعنَوِيَّةُ والعيْنِيَّةُ؛ فمِن صفاتِنَا ما هو معْنَى كالعِلْمِ، ومن صفاتنا ما هو عَيْنٌ وبعْضٌ، مثلُ: اليدِ، فنَحْن نقول: كما أن الصِّفَاتِ المعنَوِيَّةَ المثبتَةَ لله كالعِلْمِ لا يُشبِهُ صفاتِنَا المعنَوِيَّةَ كعِلمِنا، فكذَلِك الصِّفَاتُ الأخرى الَّتي تُشارِكُ مما هو عينٌ له لا تُشْبِهُ ما هو عينٌ لنا، فيَدُ اللهِ لا تُشبهُ أيدِيَنَا، كما أن عِلْمه لا يُشْبِهُ عِلمَنا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ، وَهُوَ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ كُلِّهَا أَنَّهَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ[١]، .....

فالقاعِدةُ الثَّالِثَةُ تعودُ على شيءٍ واحدٍ، وهو: هَلْ ظاهِر النُّصوصِ مُرادٌ أم غيرُ مُرادٍ؟

وقد قرَّرَ شيخُ الإسْلَام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا أُريدَ بالظَّاهِرِ المَعْنى اللائقُ بالله فهو مُرادٌ، وإن أُريدَ به المَعْنى المماثِلُ لصفاتِ المَخْلُوقِين فهو غيرُ مُرادٍ، لكنَّ الواقِعَ أن هذا ليسَ ظاهِرَ النُّصوصِ؛ لأنَّ هذا كُفرٌ وضلالٌ، ولا يمكن أن يكونَ ظاهِرُ النُّصوصِ كفرًا وضَلالًا، وضربَ لذَلِك بأمثلة مِنَ الصِّفَاتِ المعنَوِيَّةِ والصِّفَاتِ الجزئيَّة بالنِّسبة لنَا، وقال: إن صفاتِنَا منها ما هو معَانٍ، مثلُ: العِلْمِ، ومنها ما هو أبعاضٌ وأجزاءٌ مثلُ: اليدِ، وتحاشَى المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُعبِّر بمثل ذَلِك بالنِّسبَةِ للبعضِ أو الجزء بالنِّسبة لصفاتِ اللهِ، وهذا حقٌّ ليْسَ لنا أن نقولَ: يدُ اللهِ بعضٌ منْه أو جزءٌ منه، فإنَّ هذا غيرُ وارِدٍ في الشَّرع، ولكن نقول: مِن صِفَاتِ الله ما يَشتَرِكُ في الاسم ما هو أبْعاضٌ لنا، وما يُشارك بالاسمِ ما هو مَعانٍ لنا.

ولهذا نقول بالنِّسبة لصفاتِ الله أنها تنْقَسِمُ إلى معنَوِيَّةٍ وغير مَعْنَوِيَّةٍ، فالمعنوية مثل العلمِ والقُدْرَةِ، وغيرُ المعنَوِيَّةِ مثلُ اليد والوجهِ إلى آخره بالنِّسبة لصفاتِ اللهِ.

[١] قوله: «**وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ، وَهُوَ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ كُلِّهَا**»: جَعَلَ المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلَّ ما يمكِنُ من طَوائفِ المبتدِعَةِ يتوهَّم في بعْضِ الصِّفَات، وهؤُلاءِ الَّذين يُثبِتُونَ أكثرَ الصِّفَاتِ يَتوهَّـم في كثيرٍ منها أو أكثرِها، وهـؤُلاءِ الَّذين يُثبِتُونَ بعضَ الصِّـفَاتِ وينفُـونَ أكثرَها

ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ الَّذِي فَهِمَهُ فَيَقَعُ فِي أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَاذِيرِ[١]:

-مثل الأشْعريَّة- يتوهَّم في كل الصِّفَاتِ، وهؤُلاءِ الَّذين يُنكِرُونَ جميعَ الصِّفَات مثلَ الجَهْمِيَّة والمعتزلة، يتوهَّمون أنها تُماثِلُ صِفَاتِ المَخْلُوقِين، ثم يريدُ أن ينْفِيَ ذَلِك الَّذي فَهِمَه، فيقَعُ في أربعة أنواعٍ من المحاذِيرِ.

هَهُنَا من القاعدَةِ أنَّ بعضَ النَّاسِ -أو نقول كما قال المؤلِّفُ، أن كثيرًا من النَّاس، وكثيرٌ من النَّاس بمَعْنى: بعض النَّاس- يتوهَّمُ في صِفَات الله كُلِّها أو بعْضِها أنها تُماثِلُ صِفَاتِ المَخْلُوقِين، إذا تَوهَّم هذا فَهُو يريدُ أن ينفيَ التَّمثِيلَ عن اللهِ، ولا طريقَ له إلى نَفْي التَّمثيلِ إلا بنفي هذه الصِّفَاتِ؛ لأنَّه يعتَقِدُ أن الصِّفَاتِ تُماثِلُ صفةَ المَخْلُوقِين، ويقولُ -وقولُه حقٌّ-: إنَّ اللهَ لا مِثلَ له.

هذا صحيحٌ أن اللهَ لا مِثْلَ له، وهذه الصِّفَةُ تقْتَضِي التمثِيلَ، فالواجبُ نحو هذه الصِّفَةِ أن نَنْفِيَهَا عن اللهِ ما دامتْ تقْتَضِي التَّمثيلَ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليسَ كمثْلِهِ شيءٌ.

إذَنْ هذا الرَّجُل يفْهَمُ من الصِّفَاتِ أنها تماثِلُ صِفَاتِ المَخْلُوقِين، فإذا كان يعتَقِدُ هذا الاعتقادَ فالواجِبُ عليه نَفْي هذه الصِّفَات، ثم يُرِيدُ أن ينْفِيَ هذه الصِّفَاتِ عن اللهِ؛ لأنَّه يعتَقِدُ على زعْمِه أنها تماثل صِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، ومماثلَةُ المَخْلُوقِين يجب نَفْيُهَا عن الله -سبحانه-، وهذا الفهمُ ليسَ بصحيحٍ، ففَهْمُه أنها تُنافِي المَخْلُوقات غيرُ صحيحٍ كما مَرَّ في القاعِدَةِ السَّابِقة.

[١] قوله: «فَيَقَعُ فِي أَرْبَعَةِ أَنْواعٍ مِنَ المَحَاذِيرِ»، يقع؛ أي: هذا الَّذي فَهِم أن الصِّفَاتِ تُماثِلُ المَخْلُوقِين فيريد أن ينفيَ المُماثلة عَنِ الله، يقع في أربعةِ مَحاذِير:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ مَثَّلَ مَا فَهِمَهُ مِنَ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، وَظَنَّ أَنَّ مَدْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمْثِيلُ[١].

الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا وَعَطَّلَهُ، بَقِيَتِ النُّصُوصُ مُعَطَّلَةً عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاللهِ[٢].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَيَكُونُ مُعَطِّلًا لِـمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ[٣].

---

[١] المحْذُورُ الأَوَّلُ: فهْمُهُ التَّمثِيلَ.

[٢] المحذورُ الثَّاني: إذا جَعَلَ هذا هو مَدْلولُ النُّصوصِ فهو يعطِّلُ النُّصوصَ عن معنَاها، يقول: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، لا تَدُلُّ على وجه اللهِ، فإذَنْ يكون عطَّلَ معنَاها عمَّا دلَّتْ عليه من إثباتِ الصِّفَاتِ اللائقَةِ بالله، فبَقِيَ مع جِنايتِهِ على النُّصوصِ وظنِّه السيِّئ الَّذي ظنَّهُ باللهِ ورسولِهِ؛ حيث ظنَّ أنَّ الَّذي يُفهَمُ من كلامِهِ أنَّه التَّمْثِيلُ الباطلُ، قد عطَّل ما أودعَ اللهُ ورسُولُه في كلامِهِمَا من إثباتِ الصِّفَاتِ للهِ والمعاني الإلهيَّةِ اللائقَةِ بجلالِ الله تعالى.

إذن هَذان المحذورانِ جمَعَهُنَّ المُؤلِّف، وهذا نقول له: إنه جنَا على النُّصوص بأمرَين؛ بظنِّه أنها تقْتَضِي التَّمثيلَ، ثم بتَعْطِيلِهِ ما دلَّتْ عليه من المعاني اللائقةِ باللهِ.

هذانِ محذُورانِ بيِّنانِ.

[٣] المحذورُ الثَّالثُ: أنه قالَ على اللهِ بغير عِلْمٍ؛ حيث قال: إن هذه الصِّفَةَ تقتَضِي المماثَلَة، وهل قالَ اللهُ تعالى أنه مماثلُ المَخْلُوقِين؟ لم يَقُلْ ذَلِك اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بـل نفـى ذَلِـك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فتبَيَّنَ بهذا

فَيَبْقَى مَعَ جِنَايَتِهِ عَلَى النُّصُوصِ، وَظَنِّهِ السَّيِّئِ الَّذِي ظَنَّهُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ - حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ-، قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ للهِ وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللهِ تعالى.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ[١] .....

المحذورِ الثَّالثِ أنه قال على الله بغيرِ عِلْمٍ، والقائلُ على الله بغير عِلْم واقِعٌ في جهْلٍ مرَكَّبٍ، وواقعٌ فيما حرَّم الله عليه بدليل آيَتَينِ من القرآنِ:

أوَّلًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]. وهذا قَفا بما ليْسَ به عِلْم.

ثانيًا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وهذا قالَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُ؛ لأنَّه قالَ: إن هذه الصِّفَات تقتَضِي المماثلَةَ وهي لا تقتَضِي المماثَلَة.

[١] المحذورُ الرابعُ: أنه يَصِفُ الربَّ بنقيضِ تلكَ الصِّفَاتِ من صِفَات الأمواتِ والجَمادات، أو صِفَاتِ المَعْدُومات، أو صِفَاتِ المُمْتَنعاتِ.

وقَدْ مرَّ عَلَيْنَا بعضُ هؤُلاءِ، بعضُ هؤُلاءِ يَسْلُبونَ عنه النَّقِيضين؛ يعني: يَصِفُونَهُ بالمُمْتَنعاتِ، فهو إذا نفَى ذَلِك وصفَ الربَّ بنَقِيضِ تلك الصِّفَات.

وهل هو يصَرِّحُ بوصفِ الله بنقيضِ تلكَ الصِّفَات أم هو مِن لازِم قولِهِ؟

الجوَاب: أنه من لازِمِ قولِه، فهو لا يُصرِّحُ بذلِكَ، لكن مِن لازِم قولِهِ، فمثلًا إذا قال: إن اللهَ تعالى ليس عَالِيًا بذاتِهِ، يلْزَمُ هذا الجَهْلُ أن يكـون سُفْليًّا، إذا انتَفَى العُلُـوُّ

أَوْ صِفَاتِ المَعْدُومَاتِ[١]، .....

فنَقيضُه السُّفل؛ لأنَّ أي شيءٍ إما أن يكون عاليًا أو سافلًا، فإذا نَفَى العُلوَّ عن الله بذاته لزِمَ أن يكون سَافلًا.

لكن هل هو يَقولُ إن الله -سبحانه- في السُّفل؟!

لا، إلا إنه يلْزَمُ على قولِهِ.

وإذا نَفَى عنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرَّحمةَ لزِمَه ضدُّ الرَّحمةِ، أن يكون قاسِيًا ظالمًا، لكنه لم يَقُلْ: إن الله قاسٍ وظالمٌ، لكن إذا انتَفَتِ الرَّحمَةُ لزِمت القَسْوَةُ والظُّلم.

إذن هو إذا نَفَى ما وصَفَ الربُّ بِهِ نفسَه من الكمالِ لَزِمَ ضِدُّ ثبوتِ هذه الصِّفَات من النَّقائصِ، ولهذا يقول: «**الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ**».

من صِفَاتِ الأمواتِ إذا قال: إن اللهَ لا يفْعَلُ ولا يمْكِنُ أن ينزِلَ إلى السَّماءِ الدُّنْيا للقضاءِ بين عبادِهِ، أو لا يمكنُ أنْ يَسْتَوِي على العرشِ؛ لأنَّ هذا يسْتَلْزِمُ الحرَكة، والحرَكَةُ مُمْتَنِعَةٌ على اللهِ، يصيرُ إذن جمادًا أو مَيتًا -سبحانه-؛ لأنَّ هذا هو الَّذِي لا يتَحَرَّكُ، إذن كلامُهُ في نَفْي صِفَاتِ الكمالِ يسْتَلْزِمُ إثباتَ نَقْيضِهَا، وترى نقِيضَها غيرَ ضِدِّهَا.

[١] «**أَوْ صِفَاتِ المَعْدُومَاتِ**» المُمْتَنعاتُ إذا قال: إن الله ليس حيًّا ولا مَيِّتًا ولا جاهلًا، إذا نَفَى ما وصَفَ اللهُ به نفسَه من صِفَاتِ الكمالاتِ لزِمَ أن يصِفَه بصفاتِ النقائصِ، فمثلًا يقولُ: إن الله ليسَ بِحَيٍّ ولا ميِّتٍ، وليس بعالِمٍ ولا جاهلٍ، ولا بفاعِلٍ ولا بساكِنٍ، ما معْنَى هذا؟

فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ بِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الرَّبُّ، وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِن الصِّفَاتِ، وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلُ بِالْمَخْلُوقَات، فَيُجْمَعُ فِي كَلَامِ اللهِ وَفِي اللهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ، فَيَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ[١].

وصفَهُ بالأشياءِ المُمْتَنعةِ الَّتي لا يمكن في بَداهَةِ العُقولِ أن تتحَقَّقَ، (فيَكُونُ قَدْ عطَّلَ بِهِ) أي: بفْعِلِهِ هذا، وهو نَفْي صِفَاتِ الكمالِ الَّتي يستَحِقُّهَا الرَّبُّ.

[١] التعْطيلُ والتَّمثيلُ كلاهما إلْحادٌ؛ لأنَّ المعَطِّل نقَصَ وفرَّطَ، والممثِّلُ زادَ وأفرَط، المعُطِّل الَّذي يقول: لا يُوصَفُ اللهُ تعالى بالصِّفَاتِ الفُلانِيَّةِ والصِّفَة الفلانية هذا عطَّل نقَصَ، وفرَّق في دلالَةِ النُّصوصِ، والَّذي يقول: يُوصَفُ بهذا مع التمثِيلِ يكون قد زادَ وأفْرَطَ، كلاهما متطرِّفٌ، ولهذا الوسطُ أن يُوصفَ اللهُ بما وَصَف به نفسَه بدونِ تمْثيلٍ.

وقوله: «مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ» وذلك لأنَّه عَطَّلَ الأسْماءَ عن معانِيهَا، فالرحمن عطَّله مِنَ الرَّحمَةِ؛ سبق أن قلنا: إن بعضَ المعطِّلةِ يَسْلُبُ معَاني أسْماءِ اللهِ تعالى عنه، يقول: مَعْنى الرحمن إما أنه اسْم عَلَم جامدٍ فقط، وإلا أن الرَّحمنَ هو السَّمِيعُ وهو العليمُ إلى آخِرِه؛ لأنَّها كلَّها مجرَّدَةٌ عن المعَانِي.

أما إلحَادُهُ في آياتِ الله فقَدْ وضَح جدًّا بأنه عطَّلها عن مَعانِيهَا، وهذا إلحادٌ ومَيْل بها، مثالُ ذَلِك أن النُّصوصَ كلها دلَّت على وصفِ اللهِ تعالى بالعُلُوِّ والفوْقِيَّةِ على المَخْلُوقاتِ واستوائِهِ على عرْشِهِ، فأما عُلُوُّهُ ومُبَاينَتُه للمخلوقاتِ فيُعلم بالعَقْلِ الموافِق للسَّمعِ، والعُلوُّ دَلالتُه عقليَّة وسمعيَّة؛ يعني: دلَّ عليه العَقْلُ والسَّمعُ، ووَجْهُ دلالَةِ العقلِ على العُلوِّ أن نقول: هل العُلُوُّ صفَةُ كمالٍ أم صفةُ نقْصٍ؟

.....

الجوَاب: أنها صفَةُ كمالٍ، هل الربُّ يجِبُ له صِفَاتُ الكمالِ أم يجوزُ عليه صِفَاتُ النَّقْصِ؟

يجب له صِفَات الكمالِ ويمْتَنِعُ عنه صِفَات النقصِ، إذن يلزَمُ ثبوتُ العُلوِّ لله تعالى بذاتِه، فبهذا تَبَيَّنَ دلالة العقْل على عُلوِّ الله.

إذن النَّتيجَةُ أن يَلْزَمَ ثُبوتُ العُلوِّ له -سبحانه-.

دلالة السَّمْع على عُلوِّ الله كثيرةٌ جِدًّا وبِصفة متنوعة: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

وقالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للجارِيَةِ: «أينَ اللهُ؟». فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ[1].

وأشارَ النَّبِيُّ ﷺ في خطبة عَرَفَةَ إلى السَّماءِ: يُشهِدُ اللهَ تعالى على الخَلْق لما قال: «هَلْ بَلَّغْتُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ».[2]

إذن فالعُلُوُّ قد ثبَتَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والفعْليَّة والإقراريَّةِ، وثبتَ بالقُرآنِ مِنْ وجوهٍ متَنَوِّعَةٍ.

أَدِلَّةٌ أخْرى غيرُ السَّمعِ والعَقْلِ:

لدَيْنَا أدِلَّةٌ أخْرى، وهي الفِطرَةُ؛ فإن كلَّ إنسانٍ مَفْطورٌ على عُلوِّ الله، ولذَلِك لـو أن الإنسانَ من غيرِ أن يَـدْرُسَ أو يتعَلَّمَ لـو سألَ اللهَ حاجَةً تجِـدُهُ ينصرِفُ إلى عُلـوٍّ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨).

.....

ولا نَجِدُ أيَّ إنسانٍ يقول: يا رَبِّي ويضعُ يدَيْهِ بالأرضِ أبدًا، كلُّ إنسانٍ يقول: يَا رَبِّ. نَجِدُهُ يرفعُ يدَيْهِ إلى السَّماء، ولهذا قال أبو المعالِي الجُوَيْنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من الأشاعِرة الَّذين يُنكرونَ عُلوَّ اللهِ، وكان يُقرِّر هذا المذهب-: إن اللهَ كانَ ولم يكُن شَيء قَبْلَه. ثم قال: وهو الآن على ما كَانَ عَلَيْهِ. أو قال: كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ معه، وهو الآن على ما كَانَ عليه.

صحيح، كان اللهُ ولم يكُنْ شيءٌ معَه، الآن على ما كانَ عليه، إذا كان هو الآن على ما كانَ عليه؛ معناه إذن: لَيسَ عالِيًا على الخلْقِ؛ لأنَّه ليس معه شَيء، فقال له الهَمَذانِيُّ: يا أَيُّهَا الشَّيخُ، دَعْنَا من ذِكْر العَرْشِ وأخبِرْنَا عن هذه الضَّرُورَةِ الَّتي يجِدُها كلُّ إنسانٍ، ما قال عارف قطُّ: يا اللهُ إلا وَجَد من قلبِهِ ضرورَةً في طلَبِ العُلُوِّ، فجعل الجويني يلطم على رأسِه، ويقول: حيَّرني الهمَذَانِيُّ. لأنَّه عَجَزَ أن يُجيبَ عن هذه الفِطْرَةِ والضرورةِ القَلْبِيَّةِ الَّتي يكون للإنسانِ بدونِ أن يتعلَّم، إذن دَلالَةُ الفطْرَةِ نضيفها إلى دَلالة السَّمع.

الآن نقولُ: هذه ثلاثَةُ أدِلَّةٍ، وهُناك أيضًا دليل رابعٌ: وهو إجماعُ السَّلفِ على أن اللهَ تعالى في العُلُوِّ، فتكون إذِنْ أدلَّةُ العُلُوِّ أربَعَةً:

١-السَّمعُ، ويشمَلُ الكتابَ والسُّنَّةَ.

٢-العَقْلُ.

٣-الفِطرةُ.

٤-الإجْماعُ.

مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوصَ كُلَّهَا دَلَّتْ عَلَى وَصْفِ الْإِلَهِ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ، فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلسَّمْعِ، وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ هُوَ السَّمْعُ.

وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُبَايِنَهُ وَلَا مُدَاخِلَهُ، فَيَظُنُّ الْمُتَوَهِّمُ[1] أَنَّهُ إِذَا وُصِفَ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ كَانَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣].

فَيَتَخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ كَحَاجَةِ الْمُسْتَوِي عَلَى الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ، فَلَوْ غَرِقَتِ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا، وَلَوْ عَثَرَتِ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا.

---

[١] المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: يظُنُّ المتوَهِّمُ؛ هو أتى بالاستِواءِ على العَرشِ ودَليلُهُ سمْعِيٌّ محْضٌ وليس له دَلِيلٌ عقْلِيٌّ، ينكِرُ هذا المتَوَهِّمُ استواءَ الله على العرشِ بناءً على ظنِّه أن استواءَ الله على العَرْشِ كاستواءِ الإنسانِ على ظهورِ الفُلْكِ والأنعامِ، مثلُ قولِهِ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، فيَتَخَيَّلُ أنَّه إذا كان مستوِيًا على العرْشِ كان محتاجًا إليه كحاجَةِ المستوِي على الفُلكِ والأنعامِ؛ ومعلومٌ أن السفينَةَ لو غَرقَتْ لغَرَقَ الَّذي عليها؛ لأنَّه محتاجٌ إليها، ولو عَثَرَتِ الدَّابَّةُ لسقَطَ الَّذي عليها.

فهل إذا عُدِمَ العرْشُ يسقُطُ الرَّبُّ على زَعْمِهِ كذَلِك؟!

لما رأى أن هَذَا مُمْتَنِعٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنكَرَ الاستواءَ وقال: إذن أُنكِرُ الاستواءَ، وأقولُ: إنَّ الله تعالى لم يستوِ على العرشِ.

فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ عُدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ يُرِيدُ بِزَعْمِهِ أَنْ يَنْفِيَ هَذَا فَيَقُولَ: لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودٍ وَلَا اسْتِقْرَارٍ[١]، وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّى الْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ؛ فَإِنْ كَانَتِ الحَاجَةُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَلَيْسَ هُوَ بِهَذَا المَعْنَى مُسْتَوِيًا وَلَا مُسْتَقِرًّا وَلَا قَاعِدًا، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّى ذَلِكَ إِلَّا مَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا وَنَفْيُ الْآخَرِ تَحَكُّمٌ.

---

[١] يقول: ليسَ اسْتِوَاؤُهُ بقُعُودٍ ولا استِقْرَارٍ، إذن ما هُوَ استِوَاؤهُ على رأيه؟

معروف أنَّ عندهم (استَوَى) بمَعْنى (استَوْلى)، وليس معْنَى استَقَرَّ على عرشِهِ أو قَعَدَ علَيْه، وكلمة قَعَد وإن كانَتْ ورَدَتْ في أثرٍ ضعيفٍ بلفظ (جَلَسَ عَلَى العَرْشِ)، لكن هي أيضًا تَنْفِرُ منها النَّفْسُ؛ لأنَّه ليس مَشْهورًا، والمشهورُ أنَّ الاستواءَ بمعْنَى العُلُوِّ والاستقرارِ.

لكن مع ذَلِك المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يَحْكِيَ كلامَ غيرِهِ فيقولُ: «**لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودٍ وَلَا اسْتِقْرَارٍ وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّى الْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ**»: وهذا يُقالُ فيه ما يُقال في مُسمَّى الاستواءِ؛ أي: أنَّ المَعْنى أنَّك إذا قلتَ: ليس بقُعودٍ ولا استِقْرَارٍ، فإن القعودَ والاستقرارَ يلزم في مُسمَّاه ما يلْزَمُ في مُسمَّى الاستواءِ؛ بمعْنَى أنَّ مَنْ قَعَد على شَيءٍ كان مُضطرًا إليه.

وكلامُ المؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن موضوعِ الاستواءِ على العَرْشِ، وأنه لا يجوزُ أن نعتَقِدَ أن استواءَ اللهِ على عرشِهِ كاسْتِواءِ الإنسانِ على الفُلْكِ والأنْعامِ؛ لأنَّ اللهَ لم يقُل: (الاستواءُ) مطْلقًا، بل ذكَرَ استواءً مُقيَّدًا بالعَرْشِ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فهو استِوَاؤهُ من

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَيْنَ مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْقُعُودِ فُرُوقًا مَعْرُوفَةً.

وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنْ يُعْلَمَ خَطَأُ مَنْ يَنْفِي الشَّيْءَ مَعَ إِثْبَاتِ نَظِيرِهِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْخَطَأَ مِنْ خَطَئِهِ فِي مَفْهُومِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ، حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُ اسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْأَنْعَامِ وَالْفُلْكِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ الِاسْتِوَاءَ إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَمَا أَضَافَ إِلَيْهِ سَائِرَ أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ.

فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَى، كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ فَهَدَى، وَأَنَّهُ بَنَى السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، وَكَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ يَسْمَعُ وَيَرَى، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَلَمْ يَذْكُرِ اسْتِوَاءً مُطْلَقًا يَصْلُحُ لِلْمَخْلُوقِ وَلَا عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اسْتِوَاءً أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ فَلَوْ قُدِّرَ -عَلَى وَجْهِ الْفَرْضِ الْمُمْتَنِعِ- أَنَّهُ هُوَ مِثْلُ خَلْقِهِ -تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ- لَكَانَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ خَلْقِهِ؛ .....

خاصٌّ إلى خاصٍّ، فلا يجوز أن يُجعَلَ كاستواءِ المَخْلُوقِ.

وذكر المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا مثالًا آخَرَ وهو الأيْدِي، فقالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، ولا أحَدَ يَتَوَهَّمُ أن بِناءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للسَّماءِ مثلُ بِناءِ البيتِ يحتاج إلى أيدٍ وما أشبَه ذلِكَ، إذَنْ بِناءُ الله للسَّماءِ خاصٌّ به، كما أن استِواءَهُ على العَرْشِ خاصٌّ به.

وهل يكونُ اللهُ تعالى محتاجًا إلى العَرْشِ بحيثُ لو أُزيل العَرْشُ لسقط الله -سبحانَه-؟

كلا، لكِنَّ الإنسانَ إذا استوَى على الفُلكِ فهو محتاجٌ إليه، فلو غَرِقَ الفُلكُ لغرقَ الإنسانُ، ولو عثَرتِ البَهيمَةُ لسقطَ الإنسَان، فبَيْنَهُما فرْقٌ.

أَمَّا إِذَا كَانَ هُوَ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ الخَلْقِ، وَأَنَّهُ الخَالِقُ لِلْعَرْشِ وَلِغَيْرِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ لَـمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْتِوَاءً يَخُصُّهُ لَـمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ، وَلَا يَصْلُحُ لَهُ -كَمَا لَـمْ يَذْكُرْ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ وَخَلْقِهِ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِهِ-، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ الْعَرْشُ لَخَرَّ مَنْ عَلَيْهِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، هَلْ هَذَا إِلَّا جَهْلٌ مَحْضٌ وَضَلَالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذَلِكَ وَتَوَهَّمَهُ أَوْ ظَنَّهُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَمَدْلُولَهُ، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الْغَنِيِّ عَنْ الخَلْقِ؟ بَلْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ جَاهِلًا فَهِمَ مِثْلَ هَذَا وَتَوَهَّمَهُ لَبُيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ لَـمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ أَصْلًا كَمَا لَـمْ يَدُلَّ عَلَى نَظَائِرِهِ فِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ.

فَلَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ﴾، فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ بِنَاءَهُ مِثْلُ بِنَاءِ الْآدَمِيِّ الْمُحْتَاجِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى زِنْبِيلٍ وَمَجَارِفَ وَضَرْبِ لَبِنٍ وَجَبَلِ طِينٍ وَأَعْوَانٍ؟

قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَالِيَهُ مُفْتَقِرًا إِلَى سَافِلِهِ[1].

فَالهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْأَرْضُ، وَالسَّحَابُ أيضًا فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَى أَنْ تَحْمِلَهُ، وَالسَّمَوَاتُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى حَمْلِ الْأَرْضِ لَـهَا؛ .....

[١] هذا مُسلَّمٌ.

فَالْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ إِذَا كَانَ فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى خَلْقِهِ أَوْ عَرْشِهِ؟ أَوْ كَيْفَ يَسْتَلْزِمُ عُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ هَذَا الِافْتِقَارَ وَهُوَ لَيْسَ بِمُسْتَلْزَمٍ فِي الْمَخْلُوقاتِ[١]؟

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ الْغِنَى عَنْ غَيْرِهِ فَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى[٢].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦][٣].

---

[١] أتى المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدَليلٍ عَقْلِيٍّ؛ وهو أن الشَّيءَ الأعلى لا يفتقِرُ إلى الأسفلِ، وإذا كانَ الهواءُ لا يفتقِرُ إلى الأرضِ وهو فوقَه، والسَّحابُ لا يفتقِرُ إلى الأرضِ وهو فَوقَهُ، والسَّمواتُ لا تَفْتَقِرُ إلى الأرضِ وهي فَوقَها، فكذَلِك اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقَ العَرشِ ولا يفتقِرُ إلى العرشِ.

[٢] كلُّ ما ثَبَتَ من غِنَى الإنسانِ عن غيْرِهِ فالخَالِقُ أوْلى، أنت مَثلًا غَنِيٌّ عن فلان وفلان، لستَ بحاجَةٍ إلى أن يساعِدَكَ في مالٍ أو جاهٍ أو بدَن، إذن فالله تعالى أوْلى بالغِنَى من غيره، فإذا كانَ الإنسانُ قد يكُونُ غَنِيًّا عن غيرِهِ ولا يحتاجُ إليه في أيِّ شَيء فالخَالِق من بابِ أوْلى.

[٣] والَّذي في السَّماءِ هُو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: تَضْطَرِبُ. مَن تَوهَّم أن مُقْتَضَى هذه الآيَةِ أن يكونَ اللهُ في داخلِ السَّموات فهو ضَالٌّ بالاتِّفاقِ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في تَأتِي في اللغَةِ العرَبِيَّةِ للظَّرفِيَّةِ، ومعلوم أن المظروفَ داخل الظرفِ، مثل: الـماءُ في الإناءِ. الإناءُ محيطٌ بالـماءِ، والـماء داخِلُ الإناءِ، الإنسانُ في بيتِهِ.

مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الآيَةِ -﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾- أَنْ يَكُونَ اللهُ فِي دَاخِلِ السَّمَوَاتِ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّ حَرْفَ «فِي» مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَبِمَا بَعْدَهُ، فَهُوَ بِحَسَبِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ وَكَوْنِ الْجِسْمِ فِي الْحَيِّزِ، وَكَوْنِ الْعَرَضِ فِي الْجِسْمِ، وَكَوْنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ[١]، .....

البيتُ محيطٌ به، وهو داخلُ البيتِ، الدراهِمُ في الجَيبِ. الجيبُ مُحيطٌ بالدَّراهِمِ، وهي في داخِلِ الجَيبِ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، قد يَتَوَهَّمُ إنسانٌ أن السَّماءَ مُحيطَةٌ باللهِ، وأن الله في داخِلِهَا؛ لأنَّه يُعْرَفُ من مَعاني (في) الظرفِيَّةِ، والظرْفِيَّةُ لَا بُدَّ أن يكونَ الظرْفُ محيطًا بالمظْروفِ، والمظروفُ دائمًا في الظَّرْفِ.

[١] يقولُ المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَرْفُ (في) متعلِّقٌ بما قبْلَهُ وبما بعْدَهُ؛ يعني: من حيثُ المَعْنى لا مِن حيثُ العَمَلِ، هذا ليس متَعَلِّقًا بكَذَا، بل هو متَعَلِّقٌ بما قبْلَهُ وبما بعدَهُ بحسَب المَعْنى، مبتدأٌ بحسبِ المَعْنى، متعلِّقٌ بما قبله وبما بَعْدَهُ فينظر لما قَبْلَهُ ويُنظر لما بعْدَهُ ويُفسَّرُ في كلِّ مكانٍ بحسَبِهِ، فانْظُرْ إذا قال الإنسَان: الشمسُ في السَّماءِ فَـ(فِي) هنا للظرفية، فالسَّماءُ مُحيطةٌ بالشَّمْسِ، وهي داخلُ السَّماءِ، والمُراد بالسَّماء العُلوُّ كما هُو معروفٌ.

وإذا قيل: الشَّيءُ في مكانٍ، والجسمُ في الحَيِّز، نجدُ أن بينَهما فرْقًا، الشَّيء في المكانِ فمثلًا: نحن في الغُرفَةِ، وجُدران الغُرفَةِ مُحيطة بِنا مُلاصِقة لنا، لوْ كانت ملاصِقَةً لـم نستطع غيرَ المُلاصَقةِ، لكنَّها محيطةٌ بنا.

وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ[١]، فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ خَاصَّةً يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ حَرْفُ «فِي» مُسْتَعْمَلًا فِي ذَلِكَ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ: فِي السَّمَاءِ[٢].

والجسمُ في الحيِّزِ، هذا الحيِّزُ محيطٌ بالجِسْمِ؛ لأنَّ الجسمَ لا يشْغَلُ إلا الحيِّزَ الَّذي هو فيه، فعَلى هذا يكون مُحيطًا به مُلاصِقًا به، كذَلِك العَرَض في الجسمِ، يصلُحُ هذا وهذا.

ولو قُلنا: الطُّولُ في البدنِ، الحُمْرةُ في الوجه، فلا يُشبه معْنَى قولنا: الشَّيء في المكانِ؛ لأنَّ الظَّرْفِيَّةَ هنا غيرُ الظرفِيَّةِ هنا؛ إذ إنَّ هذا عرْضٌ قائمٌ بغيرِهِ، وأما الجسمُ في المكان فهو عيْنُ حالٍ في غيرِهَا، فبينهما فرْق.

كذَلِك أيضًا تقول: العرَضُ صِفَةٌ، الوجه في المرآةِ، هل هذا مِثْلُ قولِهِ: الوجْهُ في جانبِ الرأسِ أم لا؟ إذا قلت: ضَرَبْتَ وجْهَكَ في المرآةِ، فهل تتألم؟

إذَنْ فكلمة (في) مختلفَةٌ بحسبِ ما تُضَافُ إليه.

[١] وقولُه: «وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ» واحدٌ كتَبَ كلِمَةً في ورقَةٍ، تقول: هذا الكلامُ في الورقِ هل هو كقولِهِ هذا الجسمُ في المكان؟

لا نقول ذَلِك؛ لأنَّ الكلامَ في الورَقِ عبارَةٌ عن نُقُوشٍ وحُروفٍ، أما الكلامُ نفسُه فإنَّه إنما يخْرُجُ من الفَم، وكذَلِك الكلامُ في الورَقِ.

[٢] إذا قِيلَ: العَرْشُ في السَّماءِ أو في الأرضِ، هل يلزَمُ من كونِ العَرْشِ في السَّماء أن تكونَ السَّماءُ مُحيطةً به وهو داخِلَ السَّماءِ؟

وَلَوْ قِيلَ: الجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ: الجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ دَاخِلَ السَّمَوَاتِ بَلْ وَلَا الجَنَّةُ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُم اللهَ الجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[1]، فَهَذِهِ الجَنَّةُ سَقْفُهَا الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ، مَعَ أَنَّ الجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ يُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ سَوَاءٌ كَانَتْ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ أَوْ تَحْتَهَا، قَالَ تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]، وَقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨][1].

الجوَاب: لا؛ لأنَّ السَّمواتِ السبْعَ والأرَضين السبعَ بالنسبَةِ للكُرْسِيِّ كحلْقةٍ أُلقيتْ في فَلاةٍ من الأرْضِ، والكُرسيُّ فضْلُ العرْش عليه كفَضْلِ الفلَاةِ على تلكَ الحلْقَةِ[2]، فهل يمكن أن يكونَ ما هذه سَعَتُه داخِلَة في السَّماءِ أم لا يمكنُ؟ لا يمْكِنُ هذا، مثلُ لو قالَ قائِلٌ: إنه يمكِنُ أن تكونَ السَّمواتُ داخِلَ بَيْضَةٍ، لا يمكن أن تكونَ السَّمواتُ داخلَ بيضَةٍ، كذَلِك لا يمكِنُ أن يكونَ العَرْشُ داخل السَّموات؛ لأنَّه أكبرُ من السَّمواتِ بكثير.

فعلى هذا نقول: السَّماءُ يُراد به العُلوُّ.

[١] انظر إلى المثالَينِ اللَّذَيْن ذكرهما المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]، يعني: إلى العُلُوِّ، فالسَّماءُ كثيرُ العُلو، كذَلِك ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، فليس المُرادُ هنا السَّماءُ الَّتي هي السَّماءُ، بل المُرادُ بِهِ العُلوُّ، قالَ اللهُ تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين، رقم (٢٧٩٠).
(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٦٦).

.....

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ﴾ [البقرة:١٦٤]، فالمُراد به هنا السَّماءُ؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰٓءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لكِنْ هُنا ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ المُرادُ بِهِ العُلُوُّ.

يقول المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، لنا فيها ثَلاثُ تَصَوُّراتٍ: تصوُّرٌ باطِلٌ، وتصوُّرانِ صحيحانِ:

التصوُّر الأوَّلُ (التصوُّر الباطل): أن نَظُنَّ أن معْنى كونه في السَّماءِ أن السَّماءَ تُحيطُ به، وأنه داخلها، فهذا تصوُّر باطلٌ يُبطِلُه العَقْلُ والشرعُ.

وأتى المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمثِلَةٍ تدُلّ على أن (في) تكون للظرفية ولكن بحسبِ ما تُضافُ إليه بحسب موقْعِهَا ومكانها.

التَّصَوُّرُ الثانِي: أن نقولَ: إن المُراد بالسَّماءِ هُنا العُلوُّ، وتكون في السَّماءِ؛ أي: في العُلُوِّ لا في الأجرامِ المعَيَّنَةِ، ولا شكَّ أن اللهَ تعالى في العُلوِّ وليس في السفلِ.

قد يطالِبُنَا إنسان فيقولُ: أينَ الدَّلِيلُ على أن السَّماء يُرادُ بها العُلُوُّ، نقول له: مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، يعني: من العُلُوِّ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]، أي: إلى العُلُوِّ.

وكما يُقال: الجنَّة في السَّماءِ. يعني: في العُلوِّ، ليس معناه أن السَّماءَ محيطَةٌ بها؛ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السَّماءِ.

التصوُّرُ الثَّالثُ: أن نجعل (في) بمَعْنى (على)، يكون مَعْنى من (في السَّماء) (على السَّماء)، وإن كانَ الآن إذا قُلْنا: (في) بمَعْنى (على) نحتاج إلى الإتيانِ بشاهِدٍ يَدُلُّ على أن في بمَعنى على.